

استنطاق الذات وصراعها مع الآخر في الرواية النسوية الجزائرية المعاصرة
أوشام بربرية لـ جميلة زنير أنموذجا

Interrogating the Self and Its Conflict with the Other in Contemporary Algerian
Feminist Novels Berber Tattoos by Djamila Zenir as a Model

د. مفيدة ميزان

جامعة عباس لغرور خنشلة

mizane.moufida@univ-khenchela.dz

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/26

تاريخ الاستلام: 2025/06/27

ملخص:

تصنف ثنائية الأنا والآخر ضمن منظور الخطاب النسوي المعاصر، باعتبارها محوراً أساسياً في دراسة العلاقة بين الذات الأنثوية ومحيطها الاجتماعي، حيث تتناول الكاتبات النسويات الجزائرية هذه الثنائية من منظور نقدي يعكس صراع المرأة في تأكيد حضورها وهويتها داخل مجتمع يهيمن عليه الذكور، انطلاقاً من وجهة نظر المرأة الكاتبة في الرواية وسعيها لتأكيد حضورها في المجتمع، مع ومناقشة دورها ووظيفتها داخل المجتمع. فما تقوم به المرأة يتقاطع بشكل طبيعي ومباشر مع موقع الآخر وحضوره، مما يجعل الصراع ضرورة حتمية. من خلال هذا الصراع، تسعى الكاتبة الجزائرية جميلة زنير إلى استكشاف الهوية الأنثوية وتحدياتها، وتسليط الضوء على القضايا الاجتماعية والثقافية التي تؤثر على تجربتها. من خلال عملها الإبداعي أوشام بربرية.

الكلمات المفتاحية: صراع؛ الذات؛ الآخر، المرأة؛ الرجل؛ أوشام بربرية؛ الجسد.

Abstract:

The duality of self and other is categorized within the perspective of contemporary feminist discourse, in which Algerian feminist writers address the issue of the relationship between the self and its conflict with the other, starting from the perspective of the female writer in the novel and her efforts to affirm her presence in society, while discussing her role and function within it. What women do intersects naturally and directly with the position and presence of the other, making conflict an inevitable necessity. Through this conflict, Algerian writer Djamila Zenir seeks to explore female identity and its challenges, and shed light on the social and cultural issues that affect her experience. Through her creative work, "Berber Tattoos," she explores the relationship between self and other.

Keywords: Conflict; Self; Other; Woman; Man; Berber Tattoos; Body.

مقدمة:

عرف المشهد الثقافي والأدبي في الجزائر ظهور جنس أدبي جديد حاول بشكل من الاشكال طرح رؤية جديدة ومعالجة مغايرة لبعض القضايا التي تعد من الطابوهات التي لا يمكن الخوض فيها نظرا لبعض القنوات السائدة والذهنيات المسيطرة على هذا المشهد الثقافي والمتمثل في الرواية النسوية الجزائرية التي تعكس تجارب النساء وتصوراتهن ما ساهم في تشكيل وعي جديد حول قضية المرأة في المجتمع باعتبار الرواية هي الميثاق الأنثوي والوجه الثقافي، الذي تسعى فيه المرأة لحماية وجودها وفرض مكانتها وكسر قيود الصمت، لا تقتصر الرواية النسائية على طرح القضايا النسائية فحسب، بل تجاوز ذلك ليشمل الآخر، رغم اختلافه في الجنس والعادات والتقاليد. أو الفكر والتوجهات السياسية والدينية ولهذا يُعد صراع الآن والآخر محورا أساسيا لفهم الديناميات الثقافية والاجتماعية في الرواية النسوية الجزائرية، فكثيرا ما تتسم العلاقة بين الآن والآخر بالتوتر والصراع، حيث تسعى الشخصيات النسائية إلى إثبات هويتهن في مواجهة التحديات التي يفرضها المجتمع أو الآخر الذكوري. هذه الديناميكية تُظهر كيف يمكن أن تكون الهوية الأنثوية مصدر قوة أو ضعف.

تتناول كاتبات الرواية النسوية الجزائرية هذه الثنائية بطرق متعددة، وتشهد على ذلك نصوصهن الإبداعية الروائية المتنوعة التي عكست هذا الصراع باعتبار أن الرواية هي "أكثر أشكال الفن الأدبي تصورا للمراحل التاريخية الإنسانية وللتطورات الأخلاقية والفكرية"⁽¹⁾، حيث يُظهرن الآن ككيان يبحث عن إثبات مكانته وحقوقه في عالم غالبا ما يكون معاديا أو غير معترف. لهذا، انطلقت الكاتبات النسويات من خلال إبداعتهن الروائية لتأكيد ذاتهن ووعيهن برسالة الفن والإبداع كأداة مناهضة لكل مظاهر التحيز الذكوري. ولا تقتصر الكتابة النسوية على تصوير الصراع بين الآن والآخر، بل تتجاوز ذلك إلى استكشاف العلاقات المعقدة التي تربط بينهما. ومن الروائيات اللاتي سلطن الضوء على علاقة الآن بالآخر الكاتبة الجزائرية جميلة زنير التي لها من الأدوات الفكرية والفنية حتى تصور لنا العلاقة بين المرأة والرجل في عملها الإبداعي أوشام بربرية التي تحمل من خلال دلالة العنوان صورة "المرأة التقليدية، التي كانت تتخذ من الأوشام صناعة تجميلية، تزين الوجه بزخارف تكاد تكون متشابهة عند كل النساء، وتوحد مصيرهم في عرف التقاليد والعادات السائدة، وما الأوشام سوى صورة لهذا العرف، ومن ثم تصبح الأوشام الصورة النمطية للأنثى في مجتمع بربري التفكير" وعليه فإن الاشكال الذي يطرح نفسه: كيف جسدت جميلة زنير علاقة الآن بالآخر في رواية أوشام بربرية؟

1- الذات الأنثوية المستلبة

تجسد رواية "أوشام بربرية" للكاتبة جميلة زنير هوية الأنثى في علاقتها مع الذات، حيث تعاني الشخصية الرئيسية من القهر والتسلط. يُشير مفهوم "القهر" إلى العوامل اللصيقة التي تجبر الفرد على الخضوع لما لا يرغب فيه، وهو ما يتجسد على لسان البطلة قائلة "وفقدت صلتي بالبشر وبالحياة، وصرت أحس نفسي وحيدة أمام

هذا العالم بعد أن فقدت إحساسي بالاتجاه أيضاً، فقد كنت أعود من عملي بلا عقل، بلا روح، كمن يسير في نومه، لا أعني ما يدور حولي"⁽²⁾، تفصح البطلة عن فقدان الاتصال ليس فقط مع الآخرين، بل أيضاً مع الذات. حيث "تعيش الأنثى حال من الصراع الذاتي، تحاول البحث عن هويتها، تمثل علاقة انفصال مع ذاتها وكيونيتها، ثم آملها وطموحاتها، تجسد كل أشكال قهر الروح المستبدة بذاتها، والموجه لأسر حياتها داخل دائرة الأوشام الاجتماعية"⁽³⁾؛ إن الإحساس بالوحدة أمام العالم يمكن أن يكون نتيجة لتجارب مؤلمة أو ضغوط نفسية متراكمة، مما يؤدي إلى حالة من الانفصال عن الواقع"⁽⁴⁾؛ فالعلاقة مع الذات هي علاقة مشوبة بالسلبية والجمود و"من الصعوبة تجاوز الذات (الهوية) كلية (الدين، التراث، العائلة، الابن، المجتمع، الطفولة)، فالبحت عن الخلاص لا يبدأ من الآخر، وإنما من فهم الذات لما تريده وتسعى لتحقيقه"⁽⁵⁾؛

تعيش بطلة الرواية حالة عميقة من العزلة والانطوائية. التي عمقت من مشاعر الضعف والوحدة، قائلة "أدخل غرفتي الباردة فأنكفي على فراشي محتضنة جسدي بذراعي، وأنا أحرق في أضواء الغرفة بعينين لا تبصران"⁽⁶⁾، حيث تتجلى الغرفة الباردة كرمز للفراغ العاطفي والافتقار للدفع الإنساني؛ فهي "ترسم حالة التأزم التي تتخبط فيها بطلة مثقفة وعاملة، تملك كل مقومات الحياة بالمعنى الإيجابي، لكن وجودها في وسط بربري متوحش اغتال فيها إنسانيتها، وصادر ذاتها المستقلة" فالمرأة لا تنفصل همومها الموضوعية عن همومها الذاتية أو الفردية ولذا يصبح للزمن تأثير حاسم في حياة المرأة من حيث تقديم حلول مجدية كانت تنتظرها، أو السقوط بها إلى نهاية تراجيدية تحمل معنى الوحدة والقلق"⁽⁷⁾؛ فهذا الاحتضان الذاتي "محتضنة جسدي بذراعي"، يشير إلى شعور بالانفصال عن العالم الخارجي، وكأنها تسعى لتعويض ما فقدته من روابط إنسانية. تعكس هذه الذات تنوعاً في المشاعر والأفكار، حيث تسعى المرأة إلى فهم نفسها في سياق العلاقات مع الآخرين، سواء كانوا أفراداً من نفس الجنس أو من الجنس الآخر.

كذلك نجد بطلة الرواية خولة رغم ما تعرضت له من عنف إلا أنها شخصية نمطية تقليدية راضخة مستسلمة وهو ما جاء على لسانها "ما الذي حطم نفسي وجعل مني هذه المرأة المترددة المهزوزة التي تريد أن تتحدى، أن ترفض ولكنها لا تملك غير الرضوخ"⁽⁸⁾، مما يدل على وجود رغبة قوية في التحرر من القيود المفروضة عليها، لكنها تجد نفسها محاصرة بشعور العجز، لأن "العاطفة الذاتية ورقة الأنوثة عوامل قد تعرقل من احتمالية تسلطها كفرد متعجرف عنيف يلجأ إلى أقوى الوسائل والطرق حتى يسترد الكرامة المفترضة"⁽⁹⁾، هذا التناقض بين الرغبة في المقاومة والرضوخ للواقع يعكس الصراع الذي تواجهه الكثير من النساء في مجتمعاتهن.

إن التجربة المؤلمة التي مرت بها البطلة خولة في علاقتها مع الرجل جعلتها تتمنع وتتكبر على هذا الآخر حتى تلفت الانتباه قائلة "لكن حذري من الجنس الآخر كان شديد وبقيت مدة طويلة كالطود الشامخ لا أتزعج عن موقفتي، فكان ذلك التمتع سبباً في مطاردة الرجال لي، .. كانت تلك فرصتي الوحيدة للانتقام من الرجال

والاستعلاء عليهم، لكن هذا الكبرياء سرعان ما بدأ يتلاشى مع مرور السنين، ومرارة الإحباط ما فتئت تسكن أعماقي⁽¹⁰⁾، فما تعرضت له "خولة" جعل ذاتها جريحة مستكينة محبطة تنتهج مسلك الخنوع والضعف.

أيضا نجد صديقة "خولة" التي تعاني ذاتها من القهر جراء تصرفات زوجها وسلوكه "يفترسني الغضب، وأتمنى أن أصرخ.. أن أبكي أن أحطم كل ما يقع تحت يدي أن أنتقم من نفسي التي تضيعني، ولكني ألتزم الصمت، لأني سلبت القوة التي كان أن أواجهه بها، فالثورة ليست من حق الضعيف بل من حق القوي القادر على التغيير، والذي يملك إرادة غير إرادتي المستلبة، وأعود إلى الاستكانة والهدوء، وأنصحها أن يسلك الطريق السوي"⁽¹¹⁾، مما يدل على الصراع بين الرغبة في الانتقام والواقع الذي يفرض عليها التزام الصمت.

2- الذات المستلبة من قبل السلطة الذكورية

يعد نظام الذكورة من المفاهيم الأساسية في خطاب النسوية المعاصرة، إذ "لا يبدو الفرق واضحا بين النظام الأبوي والهيمنة الذكورية للتداخل بينهما وحقيقة العلاقة بينهما أن النظام الأبوي بنيته الهرمية المميزة بين الجنسين، والمبررة لتسلط الرجل على المرأة من خلال تقسيم الأدوار بينهما، هو المحضن الذي تنتعش فيه الهيمنة الذكورية"⁽¹²⁾؛ أي إن النظام الأبوي والهيمنة الذكورية هما مفهومين متداخلين يعكسان بني اجتماعية معقدة تؤثر على العلاقات بين الجنسين، وفي هذا النموذج نجد:

2-1- الذات الأنثوية الراضخة للسلطة الأبوية

عرفت المجتمعات البشرية على الرغم من تنوعها واختلاف ثقافتها خلال الحقب الماضية نمط العائلة الأبوية، فقد شاع مفهوم النظام الأبوي في حقل الدراسات النسوية انطلاقا من الأبوة في بحث الأشكال السلطوية التي تشترك مع الأبوة في اضطهاد المرأة، كالتسلط العرقي، والهيمنة الاقتصادية الرأسمالية، وأصبحت الأبوة مفهوما متعدد الأبعاد، لكنها تشير جميعا لكافة أشكال هيمنة الرجل على النساء⁽¹³⁾، حيث يحتل الأب مكانة مركزية في بناء العائلة، واحتكر السلطة والنفوذ، متحكما في حياة الأفراد ومستقبلهم وهو ما نجده في المجتمع الجزائري الذي تقتضي طبيعته تحكم الرجل في أمور الأسرة وسيطرته على المرأة والتحكم فيها "فالتبيعة العامة للمجتمع الجزائري الذي كان يتميز إلى حد بعيد بالمحافظة، وبالنظام الأبوي، حيث كان كبار السن لا يسمحون حتى بأقل درجة من التحرر...، كما أن حفاظ الرجل على شرفه جعله يبالغ في التشديد على المرأة، خاصة مع وجود الأجانب الغاشمين"⁽¹⁴⁾، هذه السلطة الأبوية التي يتم الانصياع لكل قراراتها، وهو ما نجده في ثنايا الرواية حين يهدد الجد أم خولة وتخييرها بالبقاء مع بناتها في بيت جدهما أو الذهاب مع أخوتها لتقرر أخيرا البقاء مع بناتها والانصياع لأوامره قائلا "لست أقف في طريق ابنتكم إن أرادت الرحيل معكم، ولكن من غير البنتين واحتارت أمك في هذا الاختيار الصعب: مقاطعة الأهل أو التخلي عنكما .. وأخيرا رجحت الأمومة فرحلوا غاضبين ولم يعودوا لزيارتها إلا بعد أن علموا بوجودها في المستشفى لإجراء هذه العملية"⁽¹⁵⁾،

تُظهر الثقافة الذكورية في المجتمعات التقليدية، بما فيها الجزائر، هيمنة واضحة على المرأة، حيث تُسلب منها حقوق الاختيار وتُمنح للرجل، سواء كان أبا أو أخا. وقد وصل الأمر إلى تزويج الفتيات في سن مبكرة، حتى قبل بلوغهن، مما يعكس نمطاً سائداً في تلك المجتمعات. وهو ما جاء على لسان الساردة "ثم التفت إلى والدتي التي كانت لا تزال تجفف دموعها وقال: لا تخافي عليها سأعراها بنفسني، أعرف أنها صغيرة وأنا نَحْمِلُها فوق طاقتها ومع ذلك لا مفر من هذا، فعبث العساكر ليس له حد غدا ستكبر وتذكر أننا أردنا مصلحتها"⁽¹⁶⁾، تجسد هذه الهيمنة في قصة "زهور"، شقيقة "خولة"، التي تم تزويجها من قبل جدها وهي طفلة صغيرة لرجل لم تره من قبل، وهو شخص غير موجود في قريتها "كيف تتزوج أختي من رجل غير موجود؟ كيف تنتظر عودته من مهمته بدل أن يكون هو المنتظر"⁽¹⁷⁾، يتعين على زهور الانتظار حتى يأتي هذا الرجل الغريب، مما يبرز مدى غياب إرادتها وحققها في اتخاذ القرار بشأن مصيرها. تعكس هذه التجربة واقعاً مؤلماً يعكس التقاليد التي تضع المرأة في موضع التبعية والافتقار إلى الاستقلالية، مما يستدعي ضرورة التفكير في إعادة تقييم هذه العادات والتقاليد.

2-2- الذات الأنثوية وتبعيةها لسلطة الآخر (الزوج)

تكرس المرأة التقليدية النمطية لسلطة الرجل "وتبنى مقولات التفكير الفحولي وآلياته، ويعدن من خلالها إنتاج التمثيلات الاجتماعية، والتصورات النمطية نفسها التي تخدم مصادر الهيمنة الذكورية"⁽¹⁸⁾، تتجسد السلطة المطلقة للزوج في رواية "أوشام بربرية" من خلال تعرض المرأة للهيمنة والاستبداد من قبل الرجل، الذي يمارس سلطته المستندة إلى الثوابت الاجتماعية والمادية. تبدأ هذه السلطة من تأثير الدين، ثم تمتد إلى السلطة السياسية، وصولاً إلى السلطة الجنسية.

تتجلى في الرواية ممارسة الآخر المتمثل في الزوج لسلطته التي خولتها كل الثوابت والأعراف، وهو ما تجسده شخصية الجد الذي يقدم له الولاء والطاعة، فهو نموذج له احترامه وهيئته في الأسرة وهو ما جاء على لسان السارد حين أخبر الجد أفراد الأسرة بأن العساكر الفرنسيين اكتشفوا أمر العائلة وتعاونهم مع الثوار قائلاً: "لقد نقل جدي الخبر إلينا، وقد تصدر الديوان، وتمسحت به جدي كقطة مدللة تستمد منه الدفء"⁽¹⁹⁾، فتشبيه الجدة بالقطة يحمل في ثناياه دلالة السخرية والتهميش والتبعية لسلطة الزوج ما يعني "تبعية المرأة للرجل على نحو يسلبها حريتها بحجة الوصاية عليها وحمايتها من نفسها"⁽²⁰⁾، فالكاتبة جميلة زنير تعرض لنا نموذجاً للمرأة النمطية المستكينة للدور الحريمي الهامشي واستصغار الذات في ذهن المرأة فانعكس هذا على سلوك الجدة وموقفها الذي يكتنفه الخضوع والاستسلام. "ورغم ذلك عصفت بي رغبة جامحة نحوه جعلتني أتعلق به حد الوله، بل صرت أسعى لامتلاكه فأتربص به لأكون قريبة منه، وأمسييت أحوم حوله كذبابة وألاحقه مثل كلبة .. كنت أحتقر الفتيات اللواتي يلاحقن الرجال وأصبحت مثلهن"، تعيش البطلة صراعاً داخلياً عميقاً يتجلى من خلال مشاعر

التعلق والرغبة الجارحة التي تعاني منها حيث تُظهر الكاتبة كيف يمكن للربغبات العاطفية أن تعصف بالهوية الذاتية، حيث تتحول المرأة من موقف الاحتقار تجاه سلوكيات معينة إلى الانغماس فيها بشكل كامل.

3- الذات الأنثوية المتصدية للآخر المستعمر

تتجلى مقاومة المرأة للهيمنة الاستعمارية من خلال إعادة اكتشاف هويتها الأنثوية. من خلال مواجهة وتحدي المفاهيم التقليدية التي تروج لها المجتمعات الاستعمارية، والتي غالباً ما تصوّر النساء كرموز للجسد والجمال فقط فقد حطمت المرأة الأغلال ودخلت الميدان حاثّة الآخر الرجل على السير في طريق الحرية، لأن حرب التحرير ساهمت "في تغيير واقع المرأة الجزائرية وتطويرة، فكان ميدان الحرب، الساحة التي تساوى فيها الجزائري بالجزائرية، يشتركان معا في مواجهة الموت لتحقيق الهدف"⁽²¹⁾، فالمرأة تعرضت للكثير من الظلم والتسلط من قبل الاستعمار الفرنسي خلال مرحلة الحرب "ولكنها دخلت بمحاربتها مرحلة جديدة من وجودها، هي مرحلة الحضور الفعال والمتحرر من كل التقاليد التي تحول دون كونها عنصرا فاعلا ومشاركا في حل أزمت البلاد، ولاشك بأن حضور المرأة في ساحة المعركة ظاهرة ثورية متميزة"،⁽²²⁾، إن تجربة المرأة الجزائرية خلال فترة الاستعمار والحرب التحريرية تمثل نموذجا قوياّ للتحدي والمقاومة، حيث تحولت من ضحية إلى فاعلة رئيسية في تاريخ بلادها.

لقد أظهرت المرأة الجزائرية، خلال الثورة، أنها ليست مجرد عنصر تابع بل قوة فاعلة قادرة على التأثير في مجريات الأحداث. من خلال انخراطها في الكفاح المسلح، استطاعت أن تكسر الحواجز التي فرضتها الأعراف والتقاليد، والكاتبة ركزت على دور المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية أرادت أن تكون ناطقة باسم النساء المنزويات اللواتي لا يتحررن بسهولة، "فغداة الحرب كان هناك نوعين من النساء في الجزائر الخيرة والسيئة، المتحجبة والمتحررة، المحافضة والمتسيبة، وظهر النوع الثالث المتحررات اللواتي يساعدن المجاهدين، إهن أنفسهن كن مجاهدات⁽²³⁾، وهو ما جسده جده خولة التي كانت جنبا إلى جنب مع زوجها، وانقاذا لحماذي الجريح الذي قدم ليلا، فقد قدمت الدعم هي وحفيداتها للمجاهدين.. وهو ما جاء على لسان السارد " فجأة سمعنا الراعي ينادي من أعلى الربوة المجاور محذرا من قافلة المظليين التي كانت تزحف في اتجاه الدشرة غير بعيد. نهضت جدي من تحت البقرة التي كانت تحلبها وقالت بلهجة حازمة : يجب أن نهرب حالا .. سينكلون بالجريح إن عثروا عليه هنا وقد يقتلوننا جميعا"⁽²⁴⁾، فأحداث الثورة الجزائرية شكلت لدى الكاتبة أسئلة الهوية والانتماء القومي .

4- الذات الأنثوية واكراهات الجسد

بعد الجسد أحد الثيمات المركزية في الرواية النسوية، يستعمل كأداة للاحتجاج على القمع والتمييز "فللمرأة حقوق على غرار الرجل وهي تسعى دوما لإثبات وجودها وتحقيق ذاتها في شتى الميادين واللمعان بقيمها الروحية السامية لا الجسدية أو الجنسية المجردة من المبادئ والقيم والمكرسة لدونيتها في مجتمعها"⁽²⁵⁾، خاصة أننا نعيش في ظل مجتمع غالبا ما ينظر إلى المرأة باعتبارها جسدا وليس كائنا يمتلك جسدا؛ لهذا ف "إن كتابة الجسد الأنثوي أدبيا

حالة نضج في ومحور تحليليا يجمع بين مفهوم الكتابة والجسد وعالم النساء⁽²⁶⁾، يعتبر الجسد الأنثوي عنصراً مركزياً في الكتابة النسائية، حيث يُستخدم للتعبير عن التجارب والمشاعر والأفكار. هذه الكتابة تُظهر كيف يمكن للجسد أن يكون وسيلة للتواصل مع العالم الخارجي، وكشف القضايا الاجتماعية والثقافية التي تواجه المرأة.

فالجسد الأنثوي كطبوغرافيا وبلاغة وتاريخ هو مستقر منظومة السلطة القامعة والرادعة هو مبتدأ سؤال الاستحقاق والاختلاف والتكافؤ⁽²⁷⁾، فعندما نتحدث عن الجسد كطبوغرافيا، نشير إلى كيفية تشكيل التجارب الحياتية للمرأة من خلال جسدها، الذي يصبح ساحة للصراع بين الرغبات الفردية والقيود الاجتماعية لأن "المرأة قد تصطدم وللأسف بقهر يفرضه عليها الآخر سواء أكان مؤسسة دينية أو اجتماعية وإلا سباسبية فتتحول إلى ضحية مغلوقة على أمرها لوهرها الفطري أو العقلي⁽²⁸⁾، ومظاهر هذا القهر في أشكال متعددة من العنف، مثل العنف الجسدي والنفسي، الذي يُمارس ضد النساء في البيوت والمجتمعات. كما يتضمن التمييز في مجالات العمل والتعليم والمشاركة السياسية، حيث تُحرم النساء من حقوقهن الأساسية.

عنف الاغتصاب

تمثل عفة الفتاة في المجتمعات العربية خصوصية أنثوية لا بد من الحفاظ عليها لأن "العرف الشعبي يحصر مفهوم الشرف في غشاء البكارة"⁽²⁹⁾، وهو ما جاء على لسان البطلة قائلة "فالرجال - جميع الرجال - مهما أوتوا من علم ومعرفة مصابون بحمى الشرف الرفيع .. صدقوني أن أغلب الممرضات اللواتي يشتغلن معي يروين عن مغامرات لا تخطر لك على بال، ومع ذلك يفزن بعين الرضا . بينما أخريات كنّ ضحايا ظروف غامضة صنفن في زمرة المنبذات ولفظن كالنواة لمجرد فقدائهن للعذرية . أرأيت كم هم ساذجون هؤلاء الرجال يتزوجون بطريقة أجدادهم الأولين يتناوبون هذا الميراث جيلا بعد جيل، ويطبقونه بقدسية وأمانة"⁽³⁰⁾، وبطلة الرواية خولة أثناء خروجها للشارع ومع الاحتفالات بنيل الحرية تذكرت الجندي الجريح حاولت أن تسأل شابين عنه ورافقتهم مع صديقتها ليقودهما الشابان إلى وجهة مجهولة ويقومان باغتصابهما "توقفت السيارة في مكان غير أهل، فترجلنا منها واقتادنا الشابان إلى غابة كثيفة وهناك اعتديا علينا. عدنا بعد مدة للسيارة، وبمجرد أن رأيت رفيقتي ورأيتني حتى انفجرنا نبكي بحرقه .. فبادر أحد الشابين بإخراج مديّة من جيبه وهددنا بالذبح إذا نحن واصلنا البكاء، بينما ظل الآخر جالسا في صمت وكأن الأمر لا يعنيه"⁽³¹⁾،

أن الهوية الأنثوية غالباً ما تُحدد من خلال معايير اجتماعية صارمة تتعلق بالعذرية والشرف، مما يجعل هذه المفاهيم محورياً رئيسياً في تقييم مكانة المرأة. العذرية هنا لا تعكس فقط حالة جسدية، بل تمثل أيضاً قيمة اجتماعية تُستخدم كمعيار للحكم على الفتاة، مما يضع ضغوطاً هائلة عليه ذلك "إن المرأة والجنس مقتربان، فحيثما كانت كان الجنس، والعذرية هي الصفة الأولى لقبول أو رفض الفتاة، وما الثقافة إلا أمور ثانوية في عرف المجتمع"⁽³²⁾،

لا بد إذن من إعادة التفكير في هذه المفاهيم وتحدي الأعراف الاجتماعية التي تحد من حرية المرأة وتقلل من قيمتها الإنسانية.

وفي جانب آخر نجد صديقة خولة تقص عليها معاناتها مع الآخر الذكوري المتسلط رغم زواجها وهي عذراء إلا أنها واجهت عاصفة أخرى قائلة "حين قضيت معه أسوأ ليالي عمري .. ليلة فظيعة فيها من القسوة والعنف مالا يخطر على بال ، عاملني بكل ضراوة وبمتهى الفظاظ رغم أنني كنت عذراء ، فكيف لو لم أكن ؟ وتساءلت: أهذه هي ليلة العمر التي تحدث عنها الكتب ، أهذه هي ليلة الحلم حقا ؟ وكيف يكون الاغتصاب إذا" (33)، مرت صديقة خولة بتجربة مؤلمة وصادمة، عن ليلة يُفترض أن تكون مميزة، لكنها تحولت إلى كابوس من العنف والقسوة. هذه المشاعر تعكس واقع العديد من النساء اللواتي تعرضن للاعتداء الجنسي، حيث يتناقض ما يتوقعه المجتمع من لحظات خاصة مثل ليلة الزفاف مع التجارب القاسية التي قد يمر بها الضحايا

نجد أيضاً شخصية الإسكافي الذي يستغل الظروف الاجتماعية الصعبة التي تعاني منها المرأة، متاجراً بمعاناتها لتحقيق شهواته. "تجيئين معي غدا - إلى أين ؟ معي حيث تحصلين على المال و الحلوى أتعرفين الإسكافي الذي يقع دكانه وسط المدينة - ها عرفته .. عرفته - ..أأنت تخدمينه؟ لا .. ولكني أنام معه على السرير ..أتأتين معي" (34)، هذا الإسكافي الدنيئ يسعى بشغف وراء جسد الأنثى، حتى يشبع رغباته الجنسية مستغلاً ضعفها واحتياجها، مما يعكس استغلالاً قاسياً ومؤلماً للواقع الذي تعيشه "يخفي وراءه فخاخه ليوقع بالفتيات الغريبات مستغلاً سذاجتهن وعوزهن فلقد كان من المرتزقة الذين قدموا مع الغزاة للنهب" (35)، تجسد شخصية الإسكافي نموذجاً صارخاً للاستغلال والانتهازية، حيث يختبئ خلف قناع من البراءة ليوقع بالفتيات؛ فهو يمثل أحد المرتزقة الذين جاءوا مع الغزاة، يسعى للنهب لا من خلال القوة فحسب، بل عبر استغلال ضعف النساء، مما يعكس قسوة المجتمع الذي يتيح مثل هذه الممارسات. إن هذه الشخصية تعكس واقعاً مؤلماً حيث يصبح الجسد الأنثوي سلعة تمتهن وتستغل في ظل ظروف قاسية.

خاتمة

❖ تقدم الكاتبة جميلة زفير رؤية عميقة للصراعات الداخلية التي تعاني منها النساء، حيث تصبح هذه الشخصيات رموزاً للمقاومة والتحدي. ما يعكس قوة المرأة الجزائرية في سعيها نحو الاستقلال والاعتراف بهويتها الفريدة.

❖ تسلط الرواية الضوء على القضايا النسوية وكيف تؤثر السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة على تجارب النساء. تُظهر الشخصيات النسائية قوة وقدرة على المقاومة، مما يعكس التحديات التي تواجهها النساء جنباً إلى جنب مع الرجل في المجتمع الجزائري المعاصر.

❖ تهدف الكاتبة زنير إلى تحدي الصور النمطية السائدة حول المرأة وتعزيز الوعي بقضايا الهوية والتمكين، مما يجعل روايتها تعبيراً عن البحث عن الذات في مواجهة التحديات.

❖ نقلت الكاتبة جميلة زنير معاناة المرأة في المجتمعات التقليدية من هيمنة ثقافة مهووسة بالجسد الأنثوي، حيث يُنظر إلى جسدها كرمز للفتنة والجمال، مما يؤدي إلى استغلاله بشكل مفرط. هذا الهوس يفرض عليها معايير صارمة ويجعلها عرضة للظلم والتعدي على حقوقها.

❖ ترسم جميلة زنير صورة مشرقة لبعض النماذج النسوية كشخصية الجدة التي تعيش حياة سعيدة مع الجد رغم الظروف التي فرضتها الحرب، كونها مثل نموذجاً بارزاً للصمود والتماسك الأسري في مواجهة التحديات والحنن، حيث تجسد قدرة المرأة على بناء حياة تغمرها مشاعر الحب والدفع، رغم الأجواء المشحونة بالتوتر والصراعات المحيطة بها. لا تقتصر جميلة زنير في تصويرها لشخصية الجدة على البعد التقليدي فحسب، بل تمنحها عمقاً إنسانياً يعكس تراكم التجارب وحكمة الحياة، إلى جانب إرادة قوية تجعلها نموذجاً يُحتذى به في مواجهة التحديات الاجتماعية والسياسية المعقدة. من خلال هذا التصوير المتقن، تبرز الكاتبة الدور المحوري للمرأة كمصدر للأمل والنور في مجتمع يعاني من تداعيات الحرب، مسلطة الضوء على الأدوار المتعددة التي تضطلع بها المرأة للحفاظ على تماسك الأسرة والمجتمع، رغم كل الصعوبات والعقبات. تعكس هذه الرؤية الإيجابية جانباً من المقاومة النسوية التي تتجاوز الألم والمعاناة، لتؤكد على قدرة المرأة في خلق فضاءات من السكينة والسعادة، حتى في أحلك الظروف وأكثرها قسوة.

❖ تنبش الكاتبة جميلة زنير في المسكوت عنه بجراً وتسلط الضوء على أزمة الجنس والاعتصاب في الرواية، مجسدة تلك الصورة النمطية المرتبطة بعلاقة الذكر بالأنثى في واقعنا العربي، فهي علاقة غالباً ما تكون مثقلة بالهيمنة والخضوع، عاكسةً بذلك واقعاً عربياً معقداً يتشابك فيه الموروث الثقافي مع التحولات المجتمعية. إنها تُمزق الأقنعة لتكشف عن التناقضات الصارخة التي تُعيق تحقيق المساواة والكرامة، داعيةً بوضوح إلى إعادة النظر في تلك البنى الاجتماعية التي تُشرع العنف

❖ يكشف نص أوّشام بربرية عن تشظي الذات الأنثوية الجريحة الهاربة من هويتها وروحها وشخصيتها، كونها ذات ممزقة تعيش صراعا بين اثبات ذاتها وهويتها أو الهروب منها؛ فهذه الذات ليست مجرد شخصية سردية، بل تمثل حالة إنسانية معقدة تعكس أزمات المرأة في المجتمعات التي تفرض عليها قيوداً ثقافية واجتماعية تحد من حرية التعبير عن الذات.

الهوامش:

- 1- سليم بركة، أوراق بحثية في النقد والأدب، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2014، ص71.
- 2- جميلة زفير، أوشام بربرية، ص50.
- 3- ليلي محمد بلخير، خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية، منشورات راس الجبل للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2016، ص121.
- 4- ليلي محمد بلخير، خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية، ص115.
- 5- نihal مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، ص59.
- 6- جميلة زفير، المصدر السابق، ص50.
- 7- سوسن ناجي، المرأة في المرأة، دراسة نقدية للرواية النسوية في مصر (1888، 1985)، العربي للنشر والتوزيع، مصر، ط1، ص159.
- 8- جميلة زفير، أوشام بربرية، ص31.
- 9- سماح بن خروف، من قضايا الأدب الجزائري الحديث، ط1، دار الباحث للنشر والاشهار، برج بوعريج، الجزائر، 2020، ص116.
- 10- المصدر السابق، ص23.
- 11- المصدر السابق، ص59، 60.
- 12- ملاك إبراهيم الجهني، قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر، ص139.
- 13- ملاك إبراهيم الجهني، قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر، ص149.
- 14- مفقودة صالح، المرأة في الرواية الجزائرية، ط1، وزارة الثقافة، 2008، ص28.
- 15- جميلة زفير، أوشام بربرية، ص31.
- 16- جميلة زفير، أوشام بربرية، ص14.
- 17- جميلة زفير، أوشام بربرية، ص16.
- 18- ملاك إبراهيم الجهني، قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر، الحجاب أنموذجا، مركز نما للبحوث والدراسات، ط1، بيروت، لبنان، 2015، ص153.
- 19- جميلة زفير، أوشام بربرية، دار ومضة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ط)، 2000، ص07.
- 20- نihal مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، اربد، 2008، ص16.
- 21- نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار الأصالة للنشر والتوزيع، ص268.
- 22- نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار الأصالة للنشر والتوزيع، ص272.
- 23- حفناوي بعلي، الرواية الجزائرية الجديدة المنحى الملحمي والسرد الأسطوري، فصوص النص الصوفي، ص134.
- 24- جميلة زفير، أوشام بربرية، ص12.
- 25- سماح بن خروف، من قضايا الأدب الجزائري الحديث، ط1، دار الباحث للنشر والاشهار، برج بوعريج، الجزائر، 2020، ص115.

- 26- عبد النور ادريس، النقد الأدبي النسائي والنوع الاجتماعي (الجنادر) تمثلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية، سلسلة دفاتر الاختلاف، مكناس، المغرب، ط 1، 2011، ص 40.
- 27- عبد العالي بوطيبة، الكتابة النسائية الذات والجسد، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط 1، 2006، ص 18.
- 28- سماح بن خروف، من قضايا الأدب الجزائري الحديث، ص 115.
- 29- سماح بن خروف، من قضايا الأدب الجزائري الحديث، ص 115.
- 30- المصدر السابق، ص 23.
- 31- المصدر السابق، ص 21.
- 32- سماح بن خروف، من قضايا الأدب الجزائري الحديث، ص 115.
- 33- المصدر السابق، ص 37.
- 34- المصدر السابق، ص 21.
- 35- المصدر السابق، ص 22.

قائمة المراجع:

1. جميلة زنير، أوشام بربرية، دار ومضة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ط)، 2000.
2. حفناوي بعلي، الرواية الجزائرية الجديدة المنحى الملحمي والسرد الأسطوري، نصوص النص الصوفي.
3. سليم بتقة، أوراق بحثية في النقد والأدب، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2014.
4. سماح بن خروف، من قضايا الأدب الجزائري الحديث، ط 1، دار الباحث للنشر والاشهار، برج بوعريج، الجزائر، 2020.
5. سوسن ناجي، المرأة في المرأة، دراسة نقدية للرواية النسوية في مصر (1888، 1985)، العربي للنشر والتوزيع، مصر، ط 1.
6. عبد العالي بوطيبة، الكتابة النسائية الذات والجسد، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط 1، 2006.
7. عبد النور ادريس، النقد الأدبي النسائي والنوع الاجتماعي (الجنادر) تمثلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية، سلسلة دفاتر الاختلاف، مكناس، المغرب، ط 1، 2011.
8. ليلي محمد بلخير، خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية، منشورات راس الجبل للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2016.
9. ملاك إبراهيم الجهني، قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر، الحجاب أنموذجا، مركز نما للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، 2015.
10. نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، اريد، 2008.
11. نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار الأصالة للنشر والتوزيع.